لقاء

يتحدّث الباحث السوري لـ«العربي الجديد» عن كتابه «سياسة علماء دمشق: أسئلة الإصلاح والهوية والعروبة (1516 - 1916)»، الصادر حديثاً عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، والذي يدرس فيه الهوية الوطنية السورية، منطلقاً من بيان أحوال مدينة دمشق وفاعلية علمائها طيلة أربعة عقود من الحُكم العثماني

تأريخ دمشق من بوّابة علمائها

حسان القالش أربعة قرون من عمر المدينة

حسان القالش

أنس الأسعد

في عام 1904، شهدت صفحات جريدة «ثمرات الفنون» البيروتية جدالاً أشبه بالمُفاضلة بين مدينتَي دمشق وبيروت، بداه الإصلاحي الدمشقي محمد هاشم الكتبي بمقال له حمل عنوان «تفاوت البلاد في عوائدها»، وتطرّق فيه إلى الفارق بين الدمشقيّين والبيارتة في زمانه، فحيث انشغل أهل دمشق، برأيه، بأحاديث الطعام والشراب، كان البيروتيون مشغولين بأخبار الحرب الروسية اليابانية، وقد استفزّت هذه المقارنة اثنين من أبناء مدينته: عبد القاسمي وأديب نظمي، لبردّا عليه، عبر صفحات الجريدة نفسها، بمقال عنوانُه «أمُتدمشقٌ أنتَ أم مُتبيرت؟»، بلُغة لم تخلُ من الدفاع العاطفي عن مدينتهم.

تضعنا هذه الحادثة، التي يوردها الباحث السوري حسان القالش (1978)، في كتابه «سياسة علماء دمشق: أسئلة الإصلاح والهوية والعروبة (1516 - 1916)»، في قلب الجدال القائم عن أحوال مدننا وضرورة التفكّر في ما هي عليه اليوم. وضمن هذا السياق، تحاور «العربي الجديد» المؤلّف للتعرّف عن كثب إلى كتابه، الصادر حديثاً عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، والذي يقدّم فيه قراءة جادّة لتاريخ مدينة جريحة أخرى في منطقتنا العربية اسمُها دمشق. يقرأ الباحث السوري، المُقيم في مدينة نيس الفرنسية، دمشق من بوّابة العلماء الذين يعتبرهم «مثقّفي عصرهم»، كما يقول في حديثه إلى «العربي الجديد»، فـ«لولاهم لكانت معرفتنا عن التاريخ ناقصة، ذاك أنّ العالِم البارع الرّم نفسه بمسؤوليات متعدّدة، فعدا عن الاهتمام بالعلوم الدينية ونقل المعرفة بهذه العلوم وتنقيحها وتفسيرها، كان العالِم صحافيّ عصره، فراقب تغيّرات المجتمع ولاحظ الظواهر الجديدة وسجّل رأيه فيها، وسعى لإيجاد حلول للمشاكل الاجتماعية؛ كما أنه كان مؤرّخ عصره، فدوّن الأحداث المحلّية وأحياناً ربطها بتغيّرات مركزيّة في العاصمة؛ وحتى ميول العالِم وأفكاره وآرائه كانت مؤشّراً إلى المناخ العام وأعطت صورة عن خريطة الولاءات السياسية وغيرها. إلى ذلك، كان العالِم ناطقاً باسم الناس، مدافعاً عن حقوقهم، وصلة وصل بينهم وبين السلطات».

ويضيف: «أمّا دمشق التي نتحدّث عنها فهي باختصار دمشق في الفترة العثمانية الطويلة، المدينة التي لم تفقد، منذ الأمويّين، مكانتها كمدينة - مركز، تجمع بين هويّتها الإسلامية، وموقعها الجغرافي الفريد، والتي ردّ العثمانيون اعتبارها بعدما كانت على هامش حكم المماليك وعاصمتهم: القاهرة. المدينة «المقدّسة»، التي تمتّعت بجاذبية أغرت مجموعات من المسلمين على الهجرة إليها والانتساب لها، وتميّزت بقدرة على استيعاب هؤلاء، فاخذ منهم ما يُثريها ومنحتهم طابعها الخاص. وهي المدينة، التي بالرغم من اعتبارها محافظة ومدينة، حافظت على تعدّدها الديني، ولم تضطهد غير المسلمين، الذين اعتبرتهم جزءاً أصيلاً من نسيجها الاجتماعي».

سورية في منعطفها التاريخي

يُرجع حسان القالش مسوّغات تاليف كتابه، وفي هذا الوقت بالذات، إلى «ما تمرّ به سورية من منعطف تاريخي مصيري، هو الأخطر منذ ولادتها ككيان سياسي في 1946، ومن ضمن ما كشفت عنه هذه المرحلة التي لم تنته بعد اختلاف السوريّين حول هويّتهم الوطنية، فكلّ منهم يرى «سورية» مختلفة عن الآخر، واحياناً مناقضة وربما معادية لما يراه هذا الآخر. هذا الاختلاف حول الهوية الوطنية تسبّبت به، إلى حدّ كبير، السردية التاريخية الرسمية لسورية، منذ تاسيسها إلى يومنا هذا، واخطرها وأكثرها هيمنة، السردية التاريخية التي انتجها نظام آل الأسد».

ويُتابع القالش حديثه إلى «العربي الجديد» قائلاً: «كانت مُقاومة هذه السردية التاريخية ضعيفة جداً، وهذا الضعف لم يكن نتيجة تجذّر القمع السياسي منذ 1970 فقط، بل أيضاً لندرة المبادرات الفردية لمواجهة هذه السردية، فمثلاً، كنتَ تستطيع العثور على معارضين لهذه السردية، لكنّهم ليسوا بالضرورة مقتنعين بضرورة إزالتها لصالح تشييد سردية معتدلة، تتبنى على هامشها الرسمي تياراً لإعادة التاريخ، بل قد يكون هؤلاء من مُعتنقي سردية عروبية رومانسية، أو يسارية راديكالية، أو حتى إسلامية ناقمة. بالتالي، يأتي كتابي ضمن مناخ هذه المرحلة، وضمن أحد أهدافي في مشروعي البحثي، وهو دراسة ولادة الهوية الوطنية السورية، ضمن عملية تفكيك السردية التاريخية الرسمية، وإلى جانب ذلك كلّه، كنت أشعر بواجب تجاه مدينتي دمشق، أن أكتب عنها بشكل مختلف، وقبل ذلك كلّه، أن أدرس تاريخها وأتعرّف إليه أكثر».

لا ينفصل كتاب القالش الثاني «سياسة علماء دمشق» عن كتابه الأوّل «قطار العلويّين السريع: الوعي السياسي عند العلويّين النشأة والتطوّر (1822 - 1949)»، («المؤسّسة العربية للدراسات والنشر»، 2017)، بل يستكمله من حيث «العمل على تفكيك سردية التاريخ الرسمي لسورية، والإضاءة على كلّ ما مُنعنا من التفكير والبحث فيه»، يقول: «في «قطار العلويّين السريع»، كان هدفي دراسة العلويّين لا كطائفة، بل كجماعة ساهمت في تاريخ سورية، وبالتالي، مقاومة الأفكار النمطية والتصوّرات المسبقة التي تراكمت في الوعي الجماعي لفئات متعدّدة بخصوص هذه الجماعة، والتي كان نظام آل الأسد مدركاً لها واستثمر فيها. وبهذا، كان الكتاب بمثابة ردّ اعتبار لجماعة وطنية جرى تشويه صورتها بشكل متعمّد، ثمّ أتى «سياسة علماء دمشق» ليرد الاعتبار لدمشق، ويقاوم الصورة النمطية التي تكرّست خلال حكم آل الأسد عن هذه المدينة، على أنّها أنانية وخانعة وانهزامية، وهي صورة تبنّاها البعض في أوساط المعارضة بمن فيهم مثقّفون محسوبون عليها».

دمشق منزوعة السحر

وعلى الرغم ممّا لدمشق من مكانة خاصّة في السرديات السورية والعربية، فإنّنا نرى حسان القالش يقف أمام مدينته «مُتنازلاً عن الاعتداد الرومانسي»، كما يكتب، في لحظة ربّما تكون الأشدّ كارثية في تاريخ المدينة الحديث. وهنا يمكن اعتبار كتابه في إطار «نزع السحر» عن وجه المدينة، وعن هذا التفصيل يقول لـ«العربي الجديد»: «دمشق اليوم، كما أراها، هي مدينة معقّدة ومريضة في آن، لكنّها تمتلك جسداً قويّاً قادراً على المقاومة والتحمّل. لا شكّ بأني أعشقها وأتمسّى الدفاع عنها كغيري، لكنّ ذلك يتطلّب إدراكاً لهذه المسؤولية، وألّا تكتب عنها بحُبّ، بل بمعرفة وإلمام وصدق، أن ترصد ما ارتكبه بحقّها محبّوها قبل أعدائها، وأن تُحلّل أشكال هذا الحبّ. إنّ الحبّ الكبير الذي أغدقه كثيرون، صادقون ومنافقون، على دمشق، أعمى كثيرين عمّا تعانيه هذه المدينة، وإن واجهتْ هؤلاء يهذا قالوا لك: لم نسمع من أبناء المدينة شكوىً كهذه، وهو صحيح بنسبة ما، لكنّ مردّ ذلك لا يعود فقط لتراكم القمع الذي عاناه الدمشقيون، بل لشيء آخر غير محسوس ولا يدركه إلّا قليلون، وهو أحد طباع المدينة وأهلها، المتمثّل بالصبر، هذا الصبر الذي نتج عن الخبرة التاريخية للمدينة».

> كان علماء مدينة دمشق صحافيّي عصرهم ومؤرّخيه
>
> مُقاومة السردية التاريخية الرسمية عن دمشق ضعيفة جدّاً

ويُضيف: «دمشق اليوم، ليست دمشق، هي أشدّ حالات المرض. صحيح أنّ كثيراً من معالمها قد اندرس منذ زمن طويل، كما حال كثير من المدن، لكنّ الأمر أخذ طابعاً منهجياً مع نظام آل الأسد، وقد شهدتُ ذلك عندما كنت أعمل تحقيقات صحافية تتعلق بتغيير معالم المدينة؛ والأدهى من ذلك كلّه، ما يجري اليوم من إهانة لرمزية دمشق: حين رُفع علم حزب الله فوق الجامع الأمويّ، وأهينت رمزية خان أسعد باشا بذات إرهاباً. وكلا الفريقين ينتمي إلى العالم نفسه، أي ذلك العالم الذي يعتبر أنّ الكتابة الروائية وظيفة تعبيرية، أو وسيلة لغاية، وأنّ الغاية هي المقدّس الذي يسعى الكاتب من أجل إثبات صحّته ونبله وشيمه العظيمة، وثمّة احتمال راجح للغاية اليوم، أن تذهب بعض الكتابات الروائية نحو مصير أكثر سوءاً، بعد أن تهدّمت الكثير من القيم العظيمة مثل الوطنية والمقاومة في الخِضَمّ عديم الوجه لعالمنا العربي الذي يضيق بنا وبنفسه».

(روائي من سورية)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

تصويب

كابوس

باسم النبريص

كيف تكتب وماذا، عندما يكون أهلُك وشعبك تحت الأنقاض، أو أحياء لا مكان يذهبون إليه؟ لي عوائل في جباليا، أنا خالهم، رفضوا النزوح من قبل رغم الإلحاح عليهم، قائلين إنهم لن يكرّروا خطأ الأجداد، وقد انقلبت «نجدْ» إلى «سيدروت». سيتشيظون بالخيم، فالخيار أمامهم واحد ووحيد: البقاء في الدار، على جوع وعطش ونقص دواء، أو الموت تحت أنقاضها: «بلاها مذلّة الخيمة يا خال».

ها أنا أتصل منذ أسبوعين يومياً، وغير مرّة، بلا طائل. وها أنا أعود مرغماً لأقرأ كُتباً عن أوجش ما خلق الله، وكيف كانت ألةُ قتلهم تستأصل خلق الله من غير لونهم بأطّراد، ماسحة ثقافات وحضارات، هم برابرة التاريخ لا يعرفونها ولا يقدّرونها، متى فاقد الشيء كان يفهم و يُقدّر؟ فاقد الحضارة ضدّ أية حضارة. إنما... أنتبه وأعود لنفسي مُقرّعاً: الناس في إيش وحضرتك في إيش؟ لا بدّ من عمل شيء ما. غير أن تقرأ وتكتب. فماذا أعمل وبيني وبينهم بحار وجبال ومسافات؟ ماذا سأفعل وأنا كُلّيّ العجز والقهر؟ ولماذا يتأخّر البكاء دوماً في الكوابيس؟ لا أذكر مرّة أنني بكيت في كابوس منام، فكيف أواظب على هذا النهج، في كابوس واقع حالٍ ومآل؟

الرحمة يا خالق الرحمات!

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

بطاقة

كاتب وباحث سوري، من مواليد الكويت عام 1978، يُقيم في مدينة نيس بفرنسا. عمل في الصحافة العربية ونشر العديد من مقالات الرأي، ويُركّز في كتاباته على شؤون التاريخ السوري وتقاطعاته. صدر له كتابان: «قطار العلويين السريع: النشأة والتطور 1822- 1949» عن «المؤسّسة العربية للدراسات والنشر» (2017)، و«سياسة علماء دمشق: أسئلة الإصلاح والهوية والعروبة 1516 - 1916» عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» (2024).

إطلالة

روح العصر

ممدوح عزام

كانت عبارة «روح العصر»، وهي عبارة أو مصطلح نقدي وسياسي انتشر بقوّة في ستينيات القرن العشرين، مفتاحاً أو شرطاً أمام الإنسان العربي عموماً، والكاتب العربي خصوصاً، للدخول إلى عالمين من عوالم الأدب: الرواية والشعر من جهة، والنقد الموازي من جهة ثانية، وقلّما وجدنا ناقداً عربياً لم يستخدم هذه العبارة، أو مرادفاتها، في الكلام النقدي الذي كان يأخذ في الغالب أسلوب المحاسبة، إذ يتفحّص النقد مدى اقتراب أو ابتعاد الكاتب عن روح العصر. وبينما كانت روح العصر تعني البطل الإيجابي في الماركسية، كانت روح العصر تعني الشخصية الباحثة عن الحرّية الشخصية لدى الوجودية، أو كانت تعني الشخصية العبثية التي لم تعد تجد في هذا العالم الذي تفتك به الحروب غير الفوضى وانتفاء المعنى من الحياة، ولعلّ كتاب جليل كمال الدين «الشعر العربي الحديث وروح العصر» هو الكتاب الأكثر صراحة في محاولة تفسير اقتراب الشعر العربي الحديث، من خلال أبرز الأسماء التي كانت تكتب الشعر، مثل: بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ونزار قباني وغيرهم.

في تلك المرحلة كانت روح العصر تشير، بصرف النظر عن الاتجاه، إلى الارتباط بالعالم المُعاصر، والتأثّر بما يجري فيه من تيارات فكرية وسياسية. كان العربي يتطلّع إلى العالم من حوله، ويحاول أن يفهمه، أو ينتمي إليه بوجهٍ ما من الوجوه.

غير أنّ تغليب روح العصر، أو الغاية والهدف، أو الاحداث الكبرى، على المزايا الفنّية للرواية، أو الشعر، أفضى بنا إلى نوع من الكتابة تنتهي صلاحيتها بانتهاء المهام الموكلة إليها. ثمّة العشرات من الروايات والقصائد التي لم تعد تُقرأ اليوم. إذ إنّ الإحساس بالمسؤولية لدى الكاتب كان يتّجه نحو الموضوع: الشعب أو القضية أو الفكرة، لا نحو الشخصية والبنية وتقنيات الكتابة، وقد أفضى هذا الأمر بنا اليوم إلى إنتاج ضخم من الروايات شارك فيه مئات الكتّاب الذي أرادوا أن يقولوا كلمتهم في الثورة والقمع والحرية والسجون. ليوازي ذلك كمٌّ آخر من الكتابة الرديئة التي يمكن أن تدافع عن رجل القمع، أو شرطة السجون، أو أسلحة القتلة.

لم يتغيّر الكثير اليوم، فالملاحظ أنّ التدافع للكتابة الروائية، إنما يكون الغرض منه «الدفاع عن القيم الخاصّة لا العامّة»، والمريع أنّ المجتمع العربي، وربما تكون سورية اليوم النموذج المناسب، ينقسم حيال تصنيف القيم انقساماً شاقولياً وأفقياً. وبسبب هذا سوف تجد انقسامات في التعبير الروائي الذي يتشكّل من جماعات روائية، منها من يدافع عن ثورة، ومنها من يعتبر هذه الثورة بالذات إرهاباً. وكلا الفريقين ينتمي إلى العالم نفسه، أي ذلك العالم الذي يعتبر أنّ الكتابة الروائية وظيفة تعبيرية، أو وسيلة لغاية، وأنّ الغاية هي المقدّس الذي يسعى الكاتب من أجل إثبات صحّته ونبله وشيمه العظيمة، وثمّة احتمال راجح للغاية اليوم، أن تذهب بعض الكتابات الروائية نحو مصير أكثر سوءاً، بعد أن تهدّمت الكثير من القيم العظيمة مثل الوطنية والمقاومة في الخِضَمّ عديم الوجه لعالمنا العربي الذي يضيق بنا وبنفسه.

(روائي من سورية)

مؤانسة القارئ من موقع الراوي

رحلة المشروع وتحدّيات العمل البحثي

لم يكن «المركز العربي» بالنسبة إلى حسان القالش مجرّد جهة يُصدر عنها كتابه، بل «مؤسّسة أكاديمية آمنت بمشروعه ووفّرت دعماً غير مشروط»، كما يقول

الكبة السليمانية التي يعود بناؤها إلى أواسط القرن السادس عشر دمشق، 2001 (Getty)

يقول الباحث السوري حسان القالش، في حديثه إلى «العربي الجديد»، أنّ تاليف كتابه «سياسة علماء دمشق: أسئلة الإصلاح والهوية والعروبة (1516 - 1916)» استغرقه خمس سنوات. بطبيعة الحال يمرّ أيّ باحث خلال هذه الرحلة بمحطّات وصعوبات عديدة، وبالنسبة إليه، فقد أوجز تجربته بالقول: «الصعوبات هي نفسها التي تواجه كثيراً من الباحثيْن العرب الصاعدين على ما أعتقد. منها، مثلاً، عدم القدرة على التفرّغ المريح للعمل البحثي، فهذا الترف لا يتمتّع به الجميع في عالمنا العربي، ومن ناحيتي كان عليّ التوفيق بين عملي البحثي من جهة، وعملي الآخر، ولولا جائحة كورونا لاحتجتُ إلى سنتين إضافيّتين لأُنهي كتابي».

وأضاف: «من الصعوبات أيضاً الافتقار لشبكة الأمان الأكاديمي، فعدا عن غياب المؤسّسة الأكاديمية التي تدعم الباحث مادياً ومعناً غير مشروط، هناك فقر في شبكة العلاقات التي تساعد الباحث على إنضاج مشروعه وتمدّه بالنصائح الناجحة عن خبرات هذه الشبكة. انظر مثلاً إلى مقدّمات الكتب البحثية الغربية، ستجد قائمة شكر طويلة لأشخاص قرأوا مسودة البحث، أو ناقشوا أفكاره مع الباحث. هذا أمر شديد الندرة في حالتنا. لذلك يرغب الواحد منّا في أن يصدر عمله بأفضل حال، وأن يصل إلى أكبر عدد من القرّاء، ولهذا يخسر بعض الباحثين من وقتهم بحثاً عمّن يتبنّى مشاريعهم، وقد حصل لي ذلك في كتابي الأوّل، فبعد أن رفضت عدّة دور نشر قبولَه اضطررت إلى نشره على نفقتي، وهذا ما يدعوني إلى اعتراف بالجميل وشكر «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» والقائمين عليه، وعلى رأسهم الدكتور عزمي بشارة، على تبنّيهم كتابي واهتمامهم به».

ويوضح القالش أنّه في عمله لم يتّبع منهجاً بعينه، بل بنى خبرته من خلال دراسته للكتب والأبحاث التاريخية المتعدّدة، و«بمرور الوقت جعلتني هذه الخبرة أميّز بين المناهج المختلفة، لينتهي بي الحال لاتّباع أسلوب معيّن. بالنسبة إليّ، العمل في التاريخ هو فنّ أيضاً، قدرة الباحث على توسيع قاعدة القرّاء، فلا يستهدف القارئ المتخصّص فقط؛ وبالتالي، قدرته على كسر الحاجز بينه وبين القارئ، وقدرته على مؤانسة قارئه، وأن يكون في موقع الراوي».

ويختم حسان القالش حديثه إلى «العربي الجديد» بالقول: «قراءاتي الأدبية نادرة جدّاً للأسف، سوى ما يتعلّق منها ببحث أعمل عليه. وهذه من سلبيات الالتزام بالبحث. لكني أنتظر نسختي من رواية فوّاز حداد الأخيرة «جمهورية الظلام»، فهذا الروائي هو أحد الأشخاص الذين أسهموا في رسم صورة دمشق في مخيّلتي في زمن لم أعشه، وجعلني أراها كما كانت».

أنس..

فعاليات

تنطلق، الاربعاء المقبل، فعاليات الدورة الثالثة والاربعين من **معرض الشارقة الدولي للكتاب**، والتي تتواصل لاثني عشر يوماً في مدينة الشارقة الإماراتية تحت شعار «هكذا نبدأ». يحلّ المغرب ضيف شرف على الدورة التي يشارك فيها **حوالي 2500 ناشر**، ويتضمّن برنامجها العديد من الندوات واللقاءات وحفلات إشهار الكتب.

يُفتتح، اليوم الجمعة، في «متحف قطر الوطني» بالدوحة، معرض **منظر: الفنّ والعمارة في باكستان من الاربعينيات إلى اليوم**، الذي يتواصل حتى نهاية كانون الثاني/ يناير المقبل. يُغطّي المعرض تجارب ابرز الفنّانين والمعماريّين الباكستانيّين خلال **ثمانية عقود**، من خلال مجموعة من المخطّطات واللوحات، والصور الفوتوغرافية، والمنحوتات، والاعمال التركيبية، والمنسوجات، والمنمنمات.

تنطلق، الاربعاء المقبل، في «دار المسرحي باردو» بتونس العاصمة، فعاليات الدورة الأولى من **مهرجان الفيلم القصير**، والتي تتواصل حتى العاشر من الشهر الجاري. من بين الافلام المشاركة: «بحر» لـ **بلال ابو سمرة** من مصر، و«يوم عادي» لـ **ابو الحسن قاسم** من العراق، و«الموت مرّتين» لـ **رشا هاشم** من اليمن، و«عيون» لـ **نسمة مبروكي** من تونس.

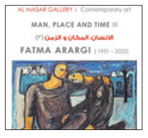

حتى الخامس من كانون الأوّل/ يناير المقبل، يتواصل في «غاليري المسار» بالقاهرة معرض استعادي للفنّانة المصرية **فاطمة العرارجي** (1931 - 2022) بعنوان **الإنسان والمكان والزمان 3**، والذي افتتح الاحد الماضي. تُعبّر اعمال التشكيلية الراحلة عن الحياة اليومية للمصريّين والاحداث السياسية والاجتماعية في تاريخ بلادها.